

معالم الوثنية في رسائل إخوان الصفاء

عندما أرسلت كلمتي على « معالم الوثنية في رسائل إخوان الصفاء » في عدد يناير من مجلة « الأديب » البيروتية كنت أنتظر أن تثير هذه الكلمة بعض الشؤون في البيئات التي تعنى بتاريخ الفكر عند العرب ، وأن يتحمس لفكرتها بعض الاختصاصيين في مثل هذا الموضوع ، فيعالجها بما تقتضيه الدراسة الموزونة والرصانة العلمية . وكنت على شبه يقين من أن هذه الكلمة تروق كثيرين من أصحاب التجديد في أساليب البحث والتقيب ، الساعين إلى الحق الصراح ، وأنها قد لا تعجب نفرأ آخر ؛ لأن البيانات التي سقتها بحاجة إلى القطعية والحتمية ، وتقوم على افتراضات ، إن جاز لها أن تحظ أمامنا أفقاً أنفأ ، فهي لا تعرض لهذا الأفق بالتفصيل والتبيين . فكان أن أوجزت مجلة « الكاتب المصري » في عدد يناير ١٩٤٧ ملخص البحث ، ثم نشرت في عدد أبريل رداً للأديب محمد كامل حسين حاول فيه أن ينفي عن إخوان الصفاء الهوى الوثني ، وأن يبين أن الافتراضات التي سقتها في البحث « مغالطات جريئة » ، وأن النصوص قد عدلت وحرفت بحيث أصبحت مطاوعة للفكرة التي أهدف إليها . ووقف من الفكر التي استندت إليها ، لفتح هذه الثغرة في معقل إخوان الصفاء ، موقفاً سلبياً ، أدى إلى الرجوع بدراستهم إلى نقطة الابتداء . وقد كان بودي ، مع احترامي لمجلة « الكاتب المصري » التي يشرف عليها عميد الأدب العربي ، أن يذيع حضرة الأستاذ رده ، حسب أصول المناظرات العلمية ، في مجلة « الأديب » نفسها ، فيقف عليه من اطلع على المقالة ، وليس أسلوبها الافتراضي ، وتبين دقائق فقراتها ، بحيث ينتهي من مطالعة الكلمة والرد إلى نتيجة يرضى عنها استنتاجه الخاص . ولكنه أثار أن يقرأ الرد من لم يقف على البحث ، وأن يقف على البحث من لم يطلع على الرد ، فأضاع على كثيرين متعة الموازنة . في رأي أن ما ذكره

حضرة الكاتب ، وإن كان ترديداً للمألوف عن الاخوان ، لا يزال إلى الآن يلخص النظرية الشائعة في البيئات التاريخية ، وهو بحاجة إلى إعادة نظر وبحث وغرلة . ولقد جاء في المقدمة الممتعة التي مهد بها الدكتور طه حسين للرسائل منذ عشرين عاماً ، أن هذه الرسائل تتطلب مطالعة دقيقة ، وعيوناً تقرأ ما بين السطور ، وأذهاناً تهتدي إلى الحقائق الخفية . والواقع أن أمرها غريب عجيب ؛ لأنك واجد فيها ماتشاء من المذاهب الدينية والفكرية ، وواجد فيها أثراً لجميع المتفلسفين والمدارس التي عرفت في الحضارتين اليونانية - البيزنطية والعربية . وبوسعك أن تقرأ في تضاعيفها ماتشاء من النصوص التي تؤيد إيمانهم القويم ، وعقيدتهم الثابتة بالأصول ، وأن تتبين فيها أنهم روحانيون ، لا يعنون إلا بخلاص نفوسهم ، وإعداد العدة اللازمة لبلوغ مراتب الملائكة ، كما تتبين إلى جانب كل هذا سعيهم الحثيث نحو غاية سياسية معينة ، تقوم على قلب الحكومة الحاضرة ، وتأسيس حكومة جديدة في أمة أخرى . وبوسعك أن تقول عنهم إنهم علويون ، وباطنيون ، وإسماعيليون ، ومعتزلة ، وفيثاغوريون ، وأفلوطينيون ؛ لأن لكل هذه النزعات أثراً بارزاً في الرسائل ، ولأن هذا الخليط يتجاوز فيها على غير وفاق ، ويترادف على غير اتساق . وهم في الواقع ليسوا شيئاً معيناً ، بل هم كل شيء . تعاليمهم كقوس قزح من حيث تعدد الألوان . فيها ماتشاء من أقوال الفيثاغوريين ، والأكاديميين ، والمثاليين ، والاسكندرانيين ، والرسل ، والأنبياء ، وأصحاب الفرق من أتباعهم .

لهذا أرى أن الكاتب قد نجح على « معالم الوثنية » عندما ألح أن نحكم على إخوان الصفاء من ظاهر كلامهم ، وأن يكون اعتمادنا على النصوص التي تؤيد عقيدتهم الشرعية ، لا على النصوص التي نستشف منها أثراً وثنياً . وقد فات حضرته أن موقف الاخوان في رسائلهم من الرأي العام المسلم ، في ذلك الحين ، موقف المحرم الذي يسعى جاهداً في إثبات براءته ، وإخفاء معالم جريمته ، وأن موقفنا منهم موقف القاضي الذي يحاول بضروب من الاستنتاج اختراق الحجب للوصول إلى الحقيقة ، فيتبين من دفاع المائل أمامه ما يثبت إدانته . وهذا ما أشار إليه حضرته في قوله « . . . فقد عمد إلى تلخيص أجزاء من النص ، هي التي تتفق مع القضية التي افترضها ، ودفع باقي النص الذي يدحض فروضه ويخالفها » . وهو أمر لا أنكره ، ولا تنكره

الدراسة العلمية : لأنى لا أريد أن أتف الناس على رأى إخوان الصفاء الظاهر فى إخوان الصفاء المستترين . وإلا فما على هؤلاء الناس إلا أن يأخذوا الرسائل فيطالعوها ، وينتهوا إلى ما يشاء حظهم من الاستنتاج .

لسنا أول من ذهب هذا المذهب فى إخوان الصفاء وإنما تبدو طلائعه عند بعض المؤرخين القدماء والمحدثين . وأسمايت الكتب التى عنيت بتدوين سراحل الفكر عند العرب ، تشير إلى هذا التلون وهذا التويه . فأبو حيان التوحيدى المتوفى حوالى سنة ٤٠٣ هـ . يقول عن رسائلهم فى « الامتاع والمؤانسة » ، بعد أن اطلع عليها « . . . وفيها خرافات ، وكنائيات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وقد غرق الصواب فيها ، لغلبة الخطأ عليها » بعد أن تبين أنهم « قد حشوها بالكلم الدينية ، والأمثال الشرعية . والحروف المحتملة ، والطرق الموهمة » (١) . وهذا رأى رده القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ . — ١٢٤٨ م . فى « أخبار الحكماء » (٢) ، ولا يخالفه أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ . — ١١١١ م . فى قوله الوارد فى « المنقذ من الضلال » (٣) . وفطن المستشرق ت. ج. ده بور إلى هذا التلون ، فذكر فى الباب الذى خصهم به رأيه فيهم ، قال : « . . . فنشأت جماعات سرية . . . وصار أعضاؤها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلا مجازيا . نعم كانوا يردون هذه الحكمة السرية إلى أنبياء ممن وردت أسماؤهم فى التوراة أو فى القرآن ، ولكن أصوها مأخوذة من مذاهب الفلاسفة الوثنيين . . . » (٤)

ليس بودى أن أعود إلى نص كلمة الأديب محمد كامل حسين ، فأفند ماجاء فيها مخالفاً للواقع ، وأشير إلى النصوص المنشورة فى تضاعيف الرسائل التى تؤيد كل ما عرضته من بينات ، كسعى إخوان الصفاء فى فصل السلطة الدينية عن المدنية فى الخلافة الاسلامية ، واطرائهم الجوسية ، واحتدائهم

(١) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٣ وما بعدها — القاهرة ١٩٤٢ .

(٢) ص ٥٨ وما بعدها — القاهرة ١٣٢٦ هـ .

(٣) ص ١١٩ و ١٢٠ — طبعة دمشق ١٩٣٤ .

(٤) ده بور « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريذة ص ٩٥ — ٩٦ وقد زاد للمرب فى الهامش قوله : « . . . قارئها يجد أنها تقم من كل مذهب ، وتمزج الدين بالفلسفة مزجاً غير سائع . فالآيات والأحاديث تمحشى بين المبارات الفلسفية حشواً ، ويستشهد بها فى غير موضعها » .

أساليب أحمد الكيال في بت دعوتهم ، واحتفالهم بالأعياد الفصلية ، واعتقادهم بقدرة الانسان على الاتصال بالكواكب لتعديل الأحداث الكونية ، والقرابة التي تصلهم بالصابئة الحرائية ، وإنما أرى الاكتفاء ، لضيق المجال ، بالأمور الرئيسية ، فأعرضها مجدداً بما يزيد لها وضوحاً أمام القارئ والناقد .

فصل الدين عن الربنا

من مزاعم الكتّاب أن المسلمين لم يسلموا جميعاً بأن الخليفة ينعم بالسلطين الدينية والمدنية ، وأن « الفرق قد كثرت لخلافهم في الخليفة » . والتاريخ الاسلامي الذي يتذرع به يشير إلى اختلاف الفرق في أمر الامام ، وفي الشروط التي يجب أن تتوافر فيه . وليس هنالك فرقة إسلامية واحدة من الفرق الرئيسية تنكر عليه جمع السلطين ، إلا إذا حاولنا الاعتماد على أقوال بعض الفرق الثنوية التي لا شأن لها . ويؤيد قولنا ما جاء في الرسائل نفسها « اعلم أن الأمة كلها تقول إنه لا بد من إمام يكون خليفة لنبيه في أمته بعد وفاته . وذلك لأسباب شتى وخصال عديدة . أحدها هو أن يحفظ الإمام الشريعة على الأمة . ويحيي السنة في الملّة . والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وتكون الأمة تصدر عن رأيه » (١) . وقد يظن الكتّاب إلى أن الأعمال التي خصها الاخوان . في هذا المقطع والذي يليه ، بالامام تعني صراحة أن جميع المسلمين يؤمنون باجتماع السلطين في يد واحدة .

يقولون ذلك وهم يعتقدون « أن خصال النبوة والملك قد تجتمع في شخص من البشر في وقت من الزمان . فيكون هو النبي المبعوث ، وهو الملك ، وربما تكون في شخصين اثنين أحدهما النبي المبعوث إلى تلك الأمة ، والآخر المسلط عليهم » (٢) .

ولعل صاحبنا يظن أيضاً إلى المغزى البعيد الذي يرمى إليه الاخوان في قولهم « في وقت من الزمان » . و « إن الله تعالى جمع لنبيه ، عليه الصلاة

والسلام والتحية ، خصال الملك والنبوة جميعاً ، كما جمعها لداود وسليمان عليهما السلام ، وكذلك جمع أيضاً ليوسف الصديق عليه السلام « (١) . ونحن عارفون أن الاخوان لم يصرحوا في نصوصهم الظاهرة بالحقيقة التي يضمرونها ، ولم يستقوا مباحثهم تنسيق العالم المعاصر ، من حيث المقدمات والعرض والنتائج إنما موهوا الحقائق تمويهاً . ولو أنعمنا النظر في الصفحات القليلة التي بينوا فيها أسباب اختلاف العلماء في الامامة لوضح لنا اعتقادهم أن الله إذا جمع النبوة والملك في شخصية النبي ، كما جمعها من قبل في سواه ، فلا أن النبي العربي اكتملت فيه الخصال الكريمة الضرورية للنبوة والملك ، وأن هذه الخصال ضرورية أيضاً للامام الذي يليه في منصبه « لأن الخلافة نوعان : خلافة النبوة ، وخلافة الملك » (٢) ولأن « في بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة ، وذلك أن الملك أمر دنيوى ، والنبوة أمر أخروى ، والدنيا والآخرة كأنهما ضدان ، وأكثر الملوك يكونون راغبين في الدنيا ، حريصين عليها ، تاركين الآخرة ، ناسين لها » (٣)

من هذا يتبين لنا :

- ١ - أن جميع المسلمين قالوا باجتماع السلطتين (كما ورد في الرسائل) .
- ٢ - أن النبي كان نبيا وملكا لاكتماله بالخصال الضرورية .
- ٣ - أن هذه الخصال قد تكون في شخصين اثنين : أحدهما النبي المبعوث إلى تلك الأمة ، والآخر المسلط عليهما ، وهذا ما يحدث في الخلفاء من بعد .
- ٤ - أن بعض أخلاق الخلفاء مضادة لخصال النبوة ، فيرون أنهم « يسرون سيرة الجبارة ، وينهون عن منكرات الأمور ، ويرتكبون هم منها كل محظور ، ويقتلون أولياء الله . . . ويشربون الخمر ، ويبادرون إلى الفجور الخ . . . » (٤) ولهذا فهم يجذون فصل السلطتين .
- ٥ - أن الاخوان يدعون لنظام شبيه بالنظام الكروتوفى الذى أثر عن

(١) الرسائل جزء ٤ صفحة ٣٣ .

(٢) ج ٤ ص ٣١ .

(٣) ج ٤ ص ٣٤ .

(٤) ج ٢ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

فيثاغورس^(١) وذلك عندما يبينون للناس أن النبي بعد أن يتوفى قد لا تجتمع خصاله في فرد واحد ، بل تتفرق في جماعة تألفت ، واتفقت كلمتها على رأى واحد ، وتعاضدت على نصرته الدين ، لتدوم لها الدولة في الدنيا ، والعقبى في الآخرة^(٢) ويحضون المريد على الانضمام إلى هذه الجماعة ، أى الجمعية ، إذا كان عازماً على طلب إصلاح الدين والدنيا .

أما ما أوردوه من إشارات إلى علويتهم ، وميلهم إلى آل البيت ، فليس في الواقع إلا تقية وإخفاء للواقع . وقد سبقهم من ادعى ادعاءهم . وأحمد الكيال الذى أشرنا إليه في المقال الرئيسى أوضح مثال على الجماعات التى كانت تتستر بالتشيع ، وتضمّر في نفسها غاية خاصة . وقد أثرت المحوسية الظهور بزى الشيعة لأسباب عديدة ، لا مجال لتفصيلها ، منها اعتقاد هذه بمجى المهدى وزعم المحوس أن سويين الذى ينتظرون خروجه ويصير الملك إليه ، يخرج على بقرة ذات قرون ، ومعه سبعون رجلا ، عليهم جلود الفهود ، لا يعرف هراً ولا برأ ، حتى يأخذ جميع الدنيا^(٣) .

أما إذا شاء كاتب الرد أن ينفى عن الاخوان التأثير بالوثنية ، فارسية كانت أو حرائية أو يونانية ، بقوله إنهم من الباطنية ، فلسنا نرى مجالا يتسع لمناقشته في أمر هذه الباطنية ، وقرابتها من الوثنية ، بل نكتفى بأن ننقل إليه رأى أحد المؤرخين المشهورين هو عبد القاهر البغدادى في كتاب « الفرق بين الفرق » حيث يقول : « ذكر أصحاب التوارىخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية

(١) النظام الكروتونى هو الذى اعتنقه الفيثاغوريون في المدرسة التى أسسها فيثاغورس في مدينة كروتونا من أعمال إيطاليا . وذلك انه أنشأ عام ٥٣٠ ق . م . جمعية في دار هجرته تضم الأنصار والمؤيدين . ووضع لها أسساً عامة ، ونظماً داخلية ، وسن لحياة أعضائها العقلية والجسمية قوانين لا يمكن الخروج عليها أو تجاوزها . يؤمها الناس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم . والجميع يتلقون التعاليم تدريجياً حسب استعدادهم . وقد أخذت هذه الجماعة ، فيما بعد ، بالانكماش على نفسها ، والتقية في أقوالها ، والتستر في أعمالها ، وبدأت تؤمن ان لا حياة لها إلا في اسيلاتها على الحكم ، وتصديل النظم القائمة لنشر مبادئها . ومن هنا نشأ الاختلاف بينها وبين السلطة في المدينة ، مما أدى إلى القضاء على الجمعية ، واحراق مقرها ، والفتك بأعضائها . والامر الثابت أن إخوان الصفاء كانوا يرمون إلى مثل هذه الغاية .

(٢) راجع الرسائل ج ٤ ص ١٧٩ .

(٣) الجاحظ كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٧٧ .

كانوا من أولاد الجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ، ولم يجسروا على إظهاره ، فوضعوا للاعتراف منهم أساساً من قبلها منهم صار في الباطن إلى تفضيل دين الجوس . وتأولوا آيات القرآن ، وسنن النبي عليه السلام ، على موافقة أساسهم « (١) » .

أثر الكواكب والسيارات

من الآراء الطاغية في الرسائل مذهب الاخوان في الكواكب والأفلاك ، وأثرها في « عالم الكون والفساد » . يوردون فصلاً متعددة ، وشذرات متفرقة في رسائلهم ، يؤيدون بها هذا الأثر ويفصلونه ، ويبينون أن كل ما يحدث في العالم الأرضي ليس إلا بتأثيرها ومفعولها . ولا يفوتهم أحياناً القول ، على سبيل التويه والتقية ، إن الله هو الذى قدر مصير الكليات والجزئيات ، في حين أن رأيهم الحقيقى جلى يستشفه كل قارئ في أغلب الرسائل . فهم يعتقدون أن هذه الكواكب كانت السبب المباشر في التكون الطبيعى ، وظهور المادة والصورة ، وتشكيلها بالهيات الجمادية والنباتية والحيوانية والانسانية ، وظهور الفردية في الأنواع ، وهى بالاضافة إلى كل ذلك سبب ما يصيب الأجسام فوق سطح الأرض من علل وأمراض واضطراب في تناسقها العضوى ، وهى مصدر الخلق الطيب والسيئ ، وباعت الحياة والموت . وهى دلائل بينة في السماء ، يستنتج منها الراسخون في العلم مصير الكائنات ، وأسرار الانقلابات ؛ ليس لأنها إشارات خفية ترسمها العلة الأولى في السماء ، بل لأنها العلة المباشرة لكل ما يتكون وينحل ويفسد . وفي رأيهم أن الأشخاص الفلكية أحياء ناطقون . وهم ملائكة الله ، وملوك أفلاكه ، وسكان سمواته . وقد عرفوا ذلك — كما يقولون — بعد النظر في العلوم الالهية وأحكامها (٢) . ويزيدون قائلين : « فعلم النجوم وأدلتها صحيحة وحق . وهى الأشخاص الفلكية التى نصهبها البارئ تعالى وأجراها مجاريها ، وإن كان النجمون يخطئون في بعض استدلالاتهم

(١) ص ١٧٤ — مصر ١٩٢٤ .

(٢) ج ٤ ص ٣٧ .

أو في أكثرها ، فلا تبطل صناعة علم النجوم من أجل ذلك ، وهو علم جعله الله تعالى معجزة لأدريس النبي» (١) .

ليس لأدريسهم أية صلة بأدريس النبي الذي اقتصر النص القرآني على القول عنه : « واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً عليا » (٢) فتواروا كعادتهم وراءه ، وأضرموا هرمس المعروف بالمثلث النعم الذي عاش — كما تقول الأساطير — قبل الطوفان ، وهو من يشير إليه ابن أبي أصيبعة « بأنه الذي تذكر الحرائية نبوته ، وتذكر الفرس أن جده كيومرث ، أى آدم ، ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ ، وهو بالعربية إدريس » . ثم يزيد على ذلك « أنه أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية ، وأن جده علمه ساعات الليل والنهار ، وهو أول من بنى الهياكل ، ومجد الله فيها ، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه ، وأنه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة ، بأشعار موزونة ، وقواف معلومة ، بلغة أهل زمانه ، في معرفة الأشياء الأرضية والعلوية (٣) » . فهرمس هو هرمس فحسب . وأما مماثلته للنبي إدريس فليست إلا من الوثنية المستترة ، ولا سيما الصابئة التي أطلقت على العلة الأولى اسم « الله » مجارة للبيئة التي عاشت فيها ، وللظروف السياسية التي أحاطت بها . وعملية التماثل والتشابه بين الشخصيات الإلهية القديمة ، عند مختلف الشعوب الوثنية ، أمر مشهور . كانوا إذا نزلوا بلداً من البلدان حملوا إليه آلهتهم ، وماتلوها بما هم واجدوه في ديار الغرب . ولهذا لم نجد بين الوثنية الشرقية ، ولا سيما الفارسية والفينيقية ، وبين الوثنيتين اليونانية والرومانية تضارباً في المذهب ، ولم نشهد نضال موت أو حياة ، وإنما هناك تداخل وتماثل ، وهناك آلهة تتخذ حيناً اسماً شرقياً ، وأحياناً اسماً يونانياً أو لاتينياً ، في حين أنها تحتفظ بميزاتنا الرئيسية . والأمثلة على ما نقوله ميسورة في كتب التاريخ المدرسية فلا نرى من الضروري سوقها في مثل هذه الكلمة . وقد شك المحققون في القرابة التي تصل هرمس بأدريس ، ونقلوها في نصوصهم ، بعد أن أشاروا إلى ضعفها ! فقال الشهرستاني : « . . . ويقال هو إدريس النبي عليه السلام » (٤) وجاراه في

(١) ج ٤ ص ٨٣ — (٢) مريم ٥٦ - ٥٧ . — (٣) ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٦ .

(٤) الملل والنحل ص ١١٢ ج ٢ هامش الفصل ج ٢ ص ١١٢ .

الشك ابن خلدون ، فقال : « . . . وقد زعم الحكماء الأقدمون أيضاً أن إدريس هو هرمس المشهور بالأمامة في الحكمة عندهم ^(١) » . ومن المعروف أن الوثنية ، على جميع أنواعها ، قابلة للتكيف والتعدل حسب المناخ الاجتماعى والسياسى ، وأن جماعة ، كإخوان الصفا ، ينثرون الآيات القرآنية شمالاً ويميناً في غير مواضعها لذر رماد في عيون المؤمنين ، بوسعهم ، في كثير من اليسر ، أن يقوموا بهذا التويه الساذج .

نجد في الرسائل ذكراً للأساليب المتبعة لنيل نعم الأشخاص الفلكية ، والدعاء لها ، وتخصيصاً للآثواب التى يجب أن تلبس ، والقرايين التى تقدم في هياكلها . وكل هذا يذكرنا بالمأثور عن الصابئة الحرائية التى تعبدت لليلة الأولى ، ثم العقل الكلى ، وزحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، وجعلت لكل منها هيكلاً خاصاً ، وشعائر خاصة .

نجد أيضاً بمثال واحد من عبادة الصابئة الحرائية للأشخاص الفلكية ، فنقف على أساليبهم في التقرب إلى الشمس وخصائصها ، كما جاءت في أمهات الكتب التاريخية . فمن المعلوم أن الهيكل الخاص بعبادة الشمس مربع الشكل ، مذهب اللون ، دهنت جدرانها بالأصفر ، وستوره من الحرير الأصفر المذهب . وفي وسط الهيكل مقعد فوق ست درجات ، وعليه صنم من ذهب مقلد بالجواهر ومتوج بتاج الملك ، وتحته على كل درجة أصنام تتحلق حوله ، مختلفة في مادتها ، ما بين خشب وحجر ومعدن مركب ، وأكثرها تماثيل ملوك ماتوا فأبقوا لهم أمثلة يذكرهم بها . إذا شاء الكاهن أن يدعو للشمس يتحلى بالتيجان ، ويرتدى الحلل الثمينة ، ويدخل الهيكل ، ويديه مجامر العود والند ، ويضحى له بما يشبهه من الحيوان ويقول : « مسبح أنت أيها النير الأعظم ، حارق النور والمحترق به . أنت الرب النوراني ذو الحياة النارية ، والنفس الكلية ، والنور الباهر . قدمنا إليك هذه الضحية المختارة الشبيهة بك ، فقبلها منا ، وارزقنا من خيرك ، وأعذنا من شرك » .

ونحن واجدون في الرسائل الطقوس والرموز نفسها ، دون زيادة أو نقصان . فالشمس مختصة بالملوك ، وبكل ما علا وارتفع قدره وعظم ذكره من النبات

والمعادن . واللباس الخاص بها الديباج الأصفر ، وحليها الذهب الأحمر . ولكن ما لنا وهذه الموازنة التي قد تطول فتستوعب بحثاً كاملاً ، فما علينا إلا الرجوع إلى الجزء الرابع من الرسائل ، وأن نقرأ المادة الواردة بين الصفحة الستين بعد المائتين إلى الصفحة السبعين بعد المائتين ، وأن نقف على ما نثروه في تضاعيف الرسائل الأخرى ، وأن نطالع ما عرف عن الصابئة وهياكلها وعبادتها السيارات ، لتؤكد أن النبع واحد ، إذا لم تكن الجماعتان فئة واحدة .

أما القول بأن التنجيم من الأمور التي ألفها الناس في حضارة العرب ، كما أنها عرفت في الحضارات القديمة ، ولا يزال بعض الناس يؤمنون بها ، فهو قول فاسد لأن التنجيم للتنبؤ بالحوادث المقبلة شئ ، والاتصال بالكواكب لاكتساب خيراتها ، ورد ضرورها ، وتحويل نتائج الحوادث المقررة ، شئ آخر . وعلى كل فإن الاسلام وجميع الديانات الموحدة قد ناهضت التنجيم كتنبؤ بالمستقبل ، وكتعديل لحوادثه . وليس في القرآن آية واحدة تؤيده ، بل كل ما ورد فيه بَيِّن ، إن الله إنما جعل القمر والشمس لعلم عدد السنين والحساب والكواكب زينة للسماء^(١) . وقد قال المستشرق الايطالى المشهور نلينو : « يكاد المتكلمون والفقهاء والفلاسفة يجمعون على مناهضة التنجيم . أما الشاذون كالكندى ، وإخوان الصفاء ، وفخر الدين الرازى فهم نادرون »^(٢) . وهناك نصوص تثبت بجلاء أن التعليم الأفلاطونى المحدث ظل حيا في مدينة الاسكندرية إلى أيام عمر بن عبد العزيز ، ثم انتقل إلى أنطاكية ، ومنها إلى مدينة حران^(٣) ، وهكذا انطفت الشعلة الأفلاطونية في كل مكان لتزهر في المدينة الوثنية . وإذا بالمذهب الاسكندرى الذى ترعرع في ظل الوثنية الاغريقية يلتجئ في ساعاته الحرجة إلى أحضان الوثنية الحرائية . فهل كان التنجيم

(١) « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » يونس ٥ « إننا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ... » الصافات ٧٠٦ « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للنظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم » الحجر ١٧١٦ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة Astrologie .

(٣) المسعودى : للتنبيه والاشراف ص ١٠٥ - طبعة القاهرة ١٩٣٨ .

بمعناه السحري ، أى العلم المحول والمعدل للأحداث العالمية ، من نتائج المدرسة الأفلاطونية المحدثة أخذته الصابئة كما اقتبسه الإخوان مباشرة عن مصدره الأول ؟

إن نظرة عجلى نلقها على المجموعة الثانية من تاسوعات أفلوطين نفسه تبين لنا موقف مؤسس المذهب من هذا العلم . فهو يعتقد أن التنجيم يناقض كل المناقضة علم النجوم ، أو الهيئة ، لأن طلوع كوكب أو غروبه ، ونزوله في الأبراج ، وانتقاله من منطقة فلكية إلى أخرى ، كل هذه الأمور تختلف باختلاف موقع الملاحظ أو المراقب الواقف على سطح الأرض . ويعتقد أن الأجسام العلوية ، منها السيارات ، هي كائنات تامة ، لا يطرأ عليها تعديل أو تحويل . وكل ما ينسب إليها من تبدل في الخلق من لين وقسوة ، وحب وبغض ، لا حقيقة له . وهى تؤلف في مجموعها جزءاً من الكائنات الخاضعة للنواميس التى تسيّر الكون بأجمعه . وأما القول بأنها تتأثر بالصلوات والدعوات والقرايين فذلك بما لا يسلم به . ويلاحظ هازئاً « إن حياة الكوكب لمزعجة حقاً إذا كان عليها أن توجه جميع الكائنات في العالم الأرضي ، وأن تحي في النفوس الفضائل والرذائل ، وتوزع التروات ، وتزرع العقبات والمصائب » (١) .

فمن الواضح إذاً أن إخوان الصفاء أخذوا هذا العلم مباشرة عن الصابئة الحرائية ، وليس من الأفلاطونية المحدثة . وذلك أن حران كانت المنبع الرئيسى لمثل هذه المباحث كما تقدم معنا . ومن الثابت أن الفيلسوفين اللذين اشتهرا بمجاعة الصابئة في اعتقادها هذا ، أى الكندى والفارابى ، قد ترددا على حران ، ووقف الأول منهما على كتبهم ، وأعجب بالآراء التى قالوا بها ، ورأى من الحتم على الفيلسوف أن يذهب مذهبهم . واتصل الفارابى بيوحنا بن حيلان في حران ، وعاد منها بمذاهب جديدة تناسب الوثنية الحرائية ، فعرض مثلاً لنظرية الفيض ، وتجاوز فيها الأسس التى وضعها أفلوطين ، وذهب في سلسلة الروحانيات ، أو العقول المفارقة ، كما يسميها ، مذهباً لا نتبين له شبيهاً عند الاسكندرانيين ، بل عند الصابئين وحدهم .

العبادة الفلسفية

يوجهون الرسالة الخمسين التي يبدأونها بذكر الرسالة الجامعة إلى أحد الأعضاء — كما ورد في مقدمتها — ليقراها على من يخصه من الاخوان الكرام . ويطلقون عليها اسم « الفصل الجامع » ويأمرون الأخ السعيد ، بعد وقوفه عليها باتباع ما أسروه به ، لينال السعادة العظمى ديناً ودنيا . وفي رأينا أن هذه الرسالة من أكثر الرسائل دلالة على الغاية التي يهدف إليها الاخوان ، ومن النصوص التي يجب أن يتوقف عندها الدارس ، وينعم الناظر في معانيها الظاهرة والباطنة .

يعرضون في هذه الرسالة للعبادات ، فيقسمونها إلى نوعين : العبادة الشرعية الناموسية ، وهي اتباع صاحب الدين ، والالتقياد لأوامره ونواهيهِ ؛ والعبادة الفلسفية الالهية ، وهي الاقرار بتوحيد الله . ولكنها في الواقع — كما يقولون في مقطع آخر من الرسالة نفسها — عبادة الفلاسفة القدماء ، والأجلة العلماء ، كانوا يأخذون بها أولادهم وتلاميذهم .

يحضون على القيام بالنوعين معاً ، ولا ينصحون بالتعرض للعبادة الثانية إلا من أتم الأولى وأتقنها ، ثم يأخذون في بعض الشروح المتعلقة بالعبادة الفلسفية ، وهي شبه مدخل لها ، لعل قارئ الرسالة « يقوم بشئ منها » (١) وليس من الضروري أن نعيد ما يذكرونه عن العبادة الشرعية ، لأنها لا تختلف في شئ عن المؤلف في البيئة الاسلامية . وأما العبادة الفلسفية فتقوم على أن يكون لهم في كل شهر من شهور السنة اليونانية ثلاثة أيام : يوم في أوله ، ويوم في وسطه ، ويوم في آخره . وفي هذه الأيام الثلاثة يدعون بالدعاء الأفلاطوني ، والتوسل الادريسي ، والمناجاة الأرسططالية . ولا يزال المصلي كذلك حتى يبدو الفجر فيقوم فيسبغ الوضوء ، ويتطهر . وإذا أقبل أول النهار ذبح بيده من محلل الحيوان (٢) .

ولهذه العبادة أربعة أعياد (٣) . يوافق الأول يوم نزول الشمس برج

(١) ج ٤ ص ٣٠٢ . — (٢) ج ٤ ص ٣٠٣ .

(٣) يذكرون أنها ثلاثة (ص ٣٠٤) غير أنه يتبين أنها أربعة في مقطع آخر (ص ٣٠٥) .

الحمل ، عندما يستوى الليل والنهار ، ويعتدل الزمان ، ويطيب الهواء ، وهو اليوم الموافق ابتداء فصل الربيع . ويكون الثاني عندما تنزل الشمس أول السرطان ، أى عندما يتناهى طول النهار وقصر الليل ، ويحيى الصيف ، ويشد الحر . ويوافق الثالث استواء الليل والنهار ودخول الخريف ، والرابع عندما يتناهى طول الليل ، ويدخل الشتاء . ويرمز العيد الأول للفرح والخصب والخروج من الشدة ، والثاني للتعب والنصب ، والثالث للفرح المزوج بالحزن والغم ، والرابع للحزن والكآبة .

ويرون أنهم أحق الناس بالعبادة الشرعية ، كما أنهم أحق الناس أيضاً بالعبادة الفلسفية الالهية ، والقيام بها ، والأخذ لها ، والتجديد لما دثر منها . وبعد أن يستعرضوا هذه الأعياد التى ينسبونها إلى الحكماء القدماء ، ويذكروا أنهم أحرى الناس بها ، يشيرون إلى أن لهم أربعة أيام يتخذون منها أعياداً ، ويأمرون الاخوان بالاجتماع فيها ، والسعى إليها . وما هى فى الواقع إلا الأعياد الفصلية التى أشرنا إليها ، يحتفلون بها فى أول الربيع والصيف والخريف والشتاء . وهى ترمز إلى أمور معينة شبيهة بها .

لسنا نجد متسعاً للوقوف على حقيقة هذه الأعياد الشهرية الثلاثية ، والفصلية الرباعية ، ولكن من مبادئ تاريخ الوثنية أنها كانت من تقاليد قدماء اليونان والرومان ، ومن بقايا الكلدانية والبابلية والأشورية والمصرية ، وما تشعب عن هذه من عقائد وطقوس فرعية ، توزعت فى الشعوب التى تأثرت بها . ولم تكن الأعياد الوثنية تعتبر مناسبات للسرور ، وإحياء الأفراح ، والتمتع بلذائذ الحياة فحسب ، كما هى العادة الجارية فى بعض الديانات الموحدة ، وإنما تختلف طبيعتها ، كما نجد فى الصابئة وإخوان الصفا ، باختلاف الاله الذى تقام من أجله . فهناك أعياد فرح ، يتهج فيها الشعب على اختلاف طبقاته . وهناك أعياد حزن وكآبة ، تقوم فيها جموع المؤمنين بضروب من الشعائر التى تعبر عن مدى أساهم .

والأعياد الفصلية التى يشير إليها الاخوان ، بل هم يتقيدون بها ، وإن موهوا أنرها على المريدين ، نجدها بأجلى وضوح فى الديانات الشرقية القديمة ، كما تتبينها فى الوثنيتين الاغريقية والرومانية . وهى مناسبة مؤاتية للاحتفال بما يطرأ على الطبيعة من تعديل وتطور فى أوائل الفصول . فعيد الشمس مثلاً

في الخامس والعشرين من ديسمبر وهو اليوم الأول من السنة الجديدة أو يوم « الشمس الجديدة » *Sol Novus* وعيد الربيع في ٢٥ مارس ، وهو يدل على تغلب الشمس على الليل ، ويمثل في نظر الوثنية الرومانية عيد فرح ؛ لأن البحارة يبدؤون فيه بمجابهة البحر ، بعد أن تهدأ العواصف . وكان القرنان الثالث والرابع المسيحيان عهد ازدهار لهذه الأعياد الفصلية (١) .

وأما الأعياد الشهرية التي وقفنا عليها عند إخوان الصفاء فنحن واحدوها بحذافيرها في الوثنية الشرقية القديمة ، وفي المذاهب الغريبة التي تأثرت بها ، وعرفت عهدئذ باسم « الأعياد الشهرية » . وكانت تقع في أول الشهر ومنتصفه وآخره (٢) .

بعد هذه الاشارات الموجزة التي سقناها لا أعلم ألا يزال حضرة الكاتب على رأيه السابق من أن إخوان الصفاء لم يخرجوا عن التقاليد الحنيفة ، وأن كل هذه الأعياد لا أصل لها في الواقع ، وإنما هي رموز يقصدون بها أعياداً شرعية ، وأن الدعاء الأفلاطوني ، والتوسل الادريسي ، والمناجاة الأرسطائية رموز أيضاً ، لأن هذه الشخصيات تمثل الأئمة ! وقد وردت هذه الأسماء في تضاعيف الرسائل مئات المرات ، لتدل على المسمى الحقيقي . وأما هنا ، هنا فقط — في رأي الناقد — فهي للدلالة على الأئمة من أهل البيت ، وذلك لأن أحدهم قال : « أنا أرسططاليس هذه الأمة » !

ملاحظة

وخلاصة ما أريد قوله « أن معالم الوثنية » بادية في الرسائل ، ولا سيما في النقاط الآتية :

١ — مخالفة إخوان الصفا لعامة المسلمين في فصل السياسة عن الدين ،

(١) *Dictionnaire des antiquités grecques et romaines*, t. II, p. 1062, Paris 1896.

Franz Cumont, *Les religions orientales dans le paganisme romain*, p. 90, Paris 1929.

(٢) E. Dhorme, *Les religions de Babylone et d'Assyrie*, pp. 234-235, Paris 1945.

وسعيهم لاقرار حكومة جمهورية يقومون هم على توجيهها ، وتسلم مقدراتها ، أسوة بالفيثاغورية الكرتونية .

٢ - ادعائهم بأنهم يستقون القسم الأوفر من تعاليمهم من هرمس ، وهو مشهور بأنه من آلهة الصابئة .

٣ - اشتهار الذين عرفوا بمساهمتهم في الرسائل بالخروج عن المؤلف (١) .

٤ - اعتقادهم بالتنجيم على الطريقة الوثنية الشرقية ، من حيث دلالة الكواكب على المستقبل ، والقيام بشعائرها الخاصة ، وتقديم القرابين لها ، لاستئصال خيراتهم ، وإقصاء شرورها ، مما نجده مفصلاً في مذهب أهل حران .

٥ - احتفالهم بالأعياد الشهرية والفصلية ، وقيامهم بالدعاء الأفلاطوني والأرسطاطاليسي والفيثاغوري .

٦ - اشتهار الطبيب أبي الحكم القرطبي ناقل الرسائل إلى الأندلس بالسحر ، وهو من الذين نزلوا حران (٢) .

٧ - نسبة الفيلسوف اليوناني فيثاغورس إلى حران . وليس من الغريب أن يخطئ إخوان الصفاء في أصله ، ولكن الغريب حقا هو زعمهم أنه حراني المولد والنشأة . فلم اختاروا له هذه المدينة الوثنية ؟ في رأينا أن الاخوان كانوا يعرفون الواقع ، ووقفوا على الفقرات المقتضية التي وضعت في ترجمة مشاهير علماء اليونان وفلاسفتهم وإنما تجاهلوا الحقيقة . ودليلنا أن ابن النديم ، وهو معاصر لهم ، أوجاء قبلهم بقليل ، أشار إلى فيثاغورس إشارة صريحة في الفهرست (٣) .

(١) بين الذين أسهموا في تديجها أبو احمد النهرجوري - ويقال في بعض كتب التراجم « أحمد النهرجوري » - . وقد عرض ياقوت له ، جاء فيما قاله فيه « ... وكان شيخاً قصيراً شديد الادمة ، متظاهراً بالاحلاد ، غير مكاتم له ، ولم يتزوج قط ... » ياقوت معجم الادباء ج ٥ ص ٧٣ - ٧٩ مطبوعات دار المأمون - مصر .

(٢) جاء في طبقات الأمم للقاضي صاعد ما يلي « ... ورحل إلى ديار المشرق . وانتهى منها إلى حران ... ثم رجع واستوطن مدينة سرقسطة ... وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا ، ولا أعرف أحداً أدخلها لأندلس قبله (طبعة الأب شيخو ص ٧٠ - ٧١) .

(٣) قال ابن النديم « ان أول من تكلم في الفلسفة يونانغورس ، وهو يونانغورس بن ميسارخس من أهل سامينا ... وهو أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم ، وله رسائل تعرف بالذهبيات ، وإنما سميت بهذا الاسم لان جالينوس كان يكتبها بالذهب إعظاماً لها وإجلالاً (ص ٣٤٢ - ٣٤٣ الطبعة المصرية ١٣٤٨ هـ) .

وذكر أصله اليوناني ، وأورد ما ينسب إليه من الكتب والرسائل . وقد استقى ابن النديم قوله من كتب شائعة في عصره . فلم حرف إخوان الصفاء النصوص التي بين أيديهم ، ونسبوه إلى حران المدينة الوثنية دون غيرها ؟

ست أجزم أن إخوان الصفاء جماعة وثنية منظمة ، وهذا ما لم أقله في الكلمة الأولى التي أذاعتها مجلة « الأديب » البيروتية بعنوان « معالم الوثنية في رسائل إخوان الصفاء » . ولكنني واثق كل الثقة أن مطالعة الرسائل بشي من إنعام نظر وتحقيق ، قد تنقنا على أمور لا نفطن إليها الآن ولا تخطر لنا ببال ، وقد تجعلنا نعدل كثيراً من آرائنا في الاخوان ، وننظر إليهم نظرة مغايرة لما هو مألوف ، بل قد تجلبو أماناً أفضاً جديداً فيما يتعلق بالأسس الظاهرة والخفية في الفلسفة الاشراقية عامة ؛ لأن النظرية الشائعة في كتب الباحثين من شرقيين ومستشرقين القائلة بأن العرب أخذوا عن اليونان وحدهم ، واقتصروا في ثقافتهم على هذا المنبع ، هي نظرية بحاجة إلى إثبات ، ويجب أن نتدبرها بحكمة ، ونعيد التحقيق في أصولها ؛ فالمفكرون في حضارة العرب قبسوا من مدرسة الصابئة قسماً وافراً من مذهبهم فيما وراء الطبيعة ، من فيض ، وانجذاب ، وأثر الكواكب السيارة ، كما أنهم أفادوا من العلوم التي رافقت هذا اللون من التفكير كالمهنية والتنجيم والحساب والجبر والهندسة^(١) .

جبره عبد الرزق

(١) راجع بحثنا لنا بعنوان « الصابئة وأثرها في الفكر العربي » مجلة « الكتاب »

عدد مايو ١٩٤٦ .